التعاون الهش بين موسكو وواشنطن فى سوريا

(**أوراق الشرق الأوسط**، المركز القومى لدراسات الشرق الأوسط، أكتوبر ٢٠١٧)

د. نورهان الشيخ

مثلت الأزمة السورية أحد جبهات المواجهة بين موسكو التى تحاول استعادة بعضاً من مكانتها وما كان لها فى الماضى القريب، وواشنطن القطب الواحد المهيمن على الشأن الدولى والإقليمى الذى خرج منتصراً فى الحرب الباردة ويأبى أن تعود روسيا لمنافسته من جديد. ومنذ الشرارة الأولى للأزمة، جاء الموقف الروسى من سوريا مناقضاً لنظيره الأمريكى، ومثل خروجاً عن الخط العام الحاكم للسياسة الروسية آنذاك، وكانت موسكو منذ بدء الأزمة أكثر سرعة فى الاستجابة وأشد حسماً فى مواقفها من التطورات فى سوريا. فعقب إندلاع المظاهرت ضد النظام السورى، أعلنت موسكو ترحيبها بحزمة الاصلاحات التى أعلنها الأسد، وقامت بإجراء اتصالات مع المعارضة السورية لإحتواء الأزمة، ورفضت رفضاً قاطعاً أى تدخل عسكرى مباشر أو غير مباشر، إنطلاقاً من حتمية الحل السلمى وجلوس كل الأطراف المعنية على طاولة المفاوضات. وهو موقف يختلف جذرياً عن الموقف الأمريكى الذى حمل بشار الأسد وحده مسئولية العنف فى سوريا، ودعم المعارضة المسلحة للاطاحة به.

ومع تصاعد المخطط الأمريكى الغربى وتدفق الارهابيين المسلحين على سوريا عبر الأراضى التركية وغيرها، أكدت روسيا أن ما يحدث فى سوريا هو "نزاع داخلى مسلح" أو حرب أهلية، كما أكدت على دور الطرف الثالث وأن النزاع من وجهة النظر الروسية ليس فقط بين النظام السورى والمعارضة وأن هناك ما يسمى "القوة الثالثة" وهي تنظيم "القاعدة" ثم "داعش" وعشرات التنظيمات الإرهابية الأخرى، التى تنامي نشاطها على نحو ملحوظ يهدد ليس فقط سوريا وإنما الأمن الإقليمي بل والأمن القومى الروسى.

إنطلاقا مما سبق رفضت موسكو الدعوة إلى تنحي بشار الأسد مع التأكيد على أن روسيا لا تدعم نظام الأسد بقدر ما تحافظ على كيان الدولة السورية حتى لا تتكرر مآساة ليبيا ومن قبلها العراق والسودان، فى تحدى صريح ومعلن للدعوة الأمريكية

لتنحى الأسد كشرط مسبق لأى تسوية محتملة للأزمة السورية. كما رفضت التدخل الخارجى بأى صورة من الصور، ووجهت انتقادات حادة لدعم المعارضة المسلحة واعتبرته تدخل خارجى غير مباشر لا يمكن قبوله ويؤدى إلى زعزعة الاستقرار فى سوريا والمنطقة بأسرها. وأنه "عدوان عسكري خارجي مبطن يحق للحكومة السورية بل ويتعين عليها أن تقضي عليه بأساليب شديدة وحاسمة وفعالة ... وأن استخدام القوة بشكل واسع ضد الالآف من المقاتلين المدربين والمسلحين بمساعدة الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا وغيرها من الدول الغربية، بالاضافة الى قطر وتركيا الذين يحاولون اسقاط السلطة الشرعية، أمر شرعي ومبرر باحكام القانون الدولي". كما كان مجلس الأمن الدولى ساحة أخرى للمواجهة بين البلدين حيث فشلت المساعي الغربية المتكررة لإصدار قرار من مجلس الأمن الدولي يدين السلطات السورية بسبب معارضة روسيا والصين واستخدامهما الفيتو.

وفى مواجهة مجموعة "أصدقاء سوريا"، التى قاطعتها روسيا وأعتبرتها "مضرة"، وتقتصر أعمالها على ايجاد مختلف الذرائع للاطاحة بالحكومة السورية الحالية، ودعم المعارضة الخارجية فقط، من وجهة النظر الروسية، تمسكت موسكو بالرعاية الأممية للملف السورى حتى تقطع الطريق أمام أى عمل أمريكى أحادى الجانب تحت مظلة تحالف دولى تقوده واشنطن، وفى هذا السياق كان للدبلوماسية الروسية الدور الرئيسى فى التوصل لخطة كوفى أنان للتسوية فى سوريا، وهى صاحبة مبادرة عقد مؤتمر جنيف الدولي للتسوية فى سوريا تحت رعاية الامم المتحدة، وأكدت على ضرورة إشراك الفاعلين الإقليميين ذوى التأثير وفى مقدمتهم إيران والسعودية.

من المواجهة إلى التعاون الهش بين البلدين:

بلغ التصعيد بين البلدين قمته واحتدمت المواجهة المباشرة بينهما إثر اتهامات الإدارة الأمريكية للنظام السورى باستخدام السلاح الكيماوى بعد حادث غاز السارين في الغوطة الشرقية عام ٢٠١٣، وتهديدها بتوجيه ضربات مباشرة لسوريا، فقد عارضت موسكو ذلك جملة وتفصيلاً ونجحت فى التصدى لواشنطن من خلال مبادرة تدمير الأسلحة الكيماوية السورية مقابل عدم توجيه الضربة العسكرية الأمريكية لسوريا وعقد مؤتمر جينيف٢. وكان الاتفاق الروسى الأمريكى منتصف سبتمبر ٢٠١٣ على

تدمير ترسانة الأسلحة الكيماوية السورية بحلول منتصف ٢٠١٤، هو بداية التعاون بين البلدين فى الملف السورى، ولكنه كان تعاون هش، فسرعان ما عاد التصعيد بينهما حول سوريا، والذى انتهى بحسم روسى لصالحها وذلك ببدء ضرباتها على الارهابيين فى الأراضى السورية فى ٣٠ سبتمبر ٢٠١٥، وذلك فى لحظة حرجة وفارقة بدا فيها أن قوى الظلام أبتلعت سوريا والعراق.

وقد أطلقت تصريحات الرئيس الأمريكى دونالد ترامب حول روسيا، خلال حملته الانتخابية، الآمال فى إمكانية مد جسور التفاهم بين موسكو وواشنطن، باعتبارهما، الفاعلين الدوليين الأهم فى المنطقة، وما سيؤدى إليه ذلك من إنفراج العديد من الأزمات الدولية والإقليمية وفى مقدمتها الأزمة السورية. فقد أبدى ترامب مرونة واضحة تجاه موسكو، بل وعبر عن "إعجابه" بالرئيس الروسى فلاديمير بوتين، وتحدث عنه باعتباره "القائد القوى" الذى يجب "التفاهم" معه. وفى أول كلمة له عقب إعلان نتائج الانتخابات، أكد ترامب "إننا نبحث عن الصداقة لا العداوة"، فى رسالة واضحة للخارج الأمريكى عامة وروسيا خاصة. الأمر الذى أثار التفاؤل بإمكانية خروج العلاقات الأمريكية الروسية من حالة التأزم التى تمر بها، وحدوث إنفراجه وشيكة فى العلاقة بين البلدين ستلقى بظلال واضحة على العديد من الملفات والقضايا الدولية والإقليمية التى تعقدت على خلفية التناقض وتراجع التفاهم بين واشنطن وموسكو. ومع إنطلاق مسار أستانا الممهد والمكمل لمسار جنيف بشأن الأزمة السورية، تصاعدت التوقعات، ووصلت مداها مع إعلان المتحدث باسم البيت الأبيض، شون سبايسر، فى ٣١ مارس أن على الولايات المتحدة قبول الواقع السياسي بأن مستقبل الرئيس السوري بشار الأسد يحدده الشعب السوري وإن تركيز الولايات المتحدة في المنطقة يجب أن ينصب على هزيمة تنظيم الدولة الإسلامية.

وما هى إلا بضعة أيام تالية وجاءت الضربات الأمريكية على سوريا مطلع أبريل إثر حادثة خان شيخون لتعيد العلاقات الأمريكية الروسية إلى المربع صفر مرة أخرى. فقد نصبت واشنطن نفسها محققاً وقاضياً وأصدرت حكمها على الفور دون تحقيق دولى موضوعى يدين النظام السورى، وقررت معاقبة الأخير بطريقة أحادية الجانب، متجاوزة الشرعية الدولية ومجلس الأمن، وقامت بتوجيه الضربات إليه، لتؤكد استمرار السياسات الأمريكية وفق النهج الذى دشنه جورج بوش بغزوه للعراق عام ٢٠٠٣. وبدلاً من التحرك الجاد لمواجهة هذا التصعيد الخطير فى قدرات التنظيمات الارهابية، اتخذت واشنطن الحادث مبرراً لضرب من يحارب تنظيم "داعش".

ومن المعروف أن "داعش" استخدمت السلاح الكيماوى أكثر من مرة فى العراق حيث استخدمت غاز الكلور السام ضد قوات البشمركة وضد القوات العراقية، وقامت بهجوم بغاز الخردل السام فى الموصل مطلع مارس وأصابت ١٢ مدنيا، وذلك عندما سقطت قذائف هاون على منازل شرقي الموصل اطلقتها "داعش" من منطقة في غرب الموصل تحت سيطرتها. الأمر الذى يشير بوضوح إلى إمتلاك "داعش" للسلاح الكيماوى. بل إن طائرة أمريكية قصفت فى مارس موقعا في غرب الموصل مخلفة عشرات المدنيين بين قتيل وجريح. وفى تناقض واضح للصمت الأمريكى عن هذه الحالات قامت بضرب سوريا رغم إن الأخيرة انضمت، بموجب الاتفاق الروسي الأمريكي، إلى اتفاقية الأسلحة الكيميائية ووافقت على تدمير مخزونها تحت رعاية منظمة حظر الأسلحة الكيميائية.

فى هذا الاطار، أدانت روسيا الضربات الأمريكية على قاعدة الشعيرات الجوية السورية، وقامت بتعليق مذكرة التفاهم الروسية الأمريكية الموقعة في ٢٠١٥ لضمان سلامة التحليق في سماء سوريا والحيلولة دون وقوع حوادث غير مرغوب فيها، واستخدمت الفيتو ضد مشروع قرار اقترحته الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بشأن حادث الهجوم الكيماوى ودعت الأمم المتحدة إلى إجراء تحقيق دولى مستقل فى هذا الخصوص.

وحملت التطورات اللاحقة لحادث خان شيخون تباعد بين البلدين حول الملف السورى، وهو ما تأكد خلال زيارة وزير الخارجية الأمريكى لروسيا فى ١٢ أبريل، وحثه روسيا على التوقف عن دعم الرئيس السوري بشار الأسد إنطلاقاً من أن الرئيس السوري قد لا يضطلع بأي دور في مستقبل البلاد.

العوامل التى تفرض التعاون بين البلدين:

أعاد لقاء بوتين وترامب على هامش قمة العشرين فى هامبورج يوليو الماضى، والتوافق الذى حدث بينهما حول منطقة خفض التصعيد فى جنوب سوريا، التفاؤل بشأن إمكانية التعاون بين البلدين حول الملف السورى، وهو تعاون تفرضه الضرورة على البلدين. فواشنطن تجد نفسها مضطرة للتعاون مع روسيا التى بات من الواضح أنها هى التى تقود الأحداث فى سوريا. فعلى مدى العامين لم تتوقف العمليات الروسية

لاجتثاث الارهاب من الأراضى السورية، وتسارعت التطورات فى الداخل السورى وعلى الصعيدين الإقليمى والدولى لتشكل فى مجملها مشهد مختلف كلية لسوريا والمنطقة عن ما كان عليه الحال قبل عامين.

فمن ناحية، كان للتدخل الروسى تأثير مباشر فى إبعاد شبح "أفغنة سوريا"، الذى كاد أن يكون واقعاً، وحال دون تكرار المآساة الأفغانية فى عالمنا العربى. فمنذ اللحظة الأولى كان واضحاً جدية وفاعلية الضربات الروسية، وإنها طلعات حقيقية تستخدم فيها أحدث التقنيات العسكرية، وليست عروض استعراضية كطلعات دول أخرى، مما أدى إلى تقهقر "داعش"، التى سيطرت على الأراضى السورية ومن قبلها العراقية فى طرفة عين، وعلى مرأى ومسمع القوى الدولية التى طالما أدعت إنها تحارب الارهاب. ووفقاً لبيان لنائب وزير الدفاع الروسي، أناتولي أنطونوف، فى ٧ أكتوبر ٢٠١٦، تم تصفية حوالي ٣٥ ألف أرهابى فى سوريا، بينهم أكثر من ٢٧٠٠ إرهابي أتو من روسيا ومحيطها فى رابطة الدول المستقلة، كما تم تصفية زعيم داعش أبو بكر البغدادى وأكثر من ٣٠ قيادة لداعش في إحدى الغارات الروسية على مركز قيادة تابع للتنظيم فى الرقة السورية ليلة ٢٨ مايو الماضى.

من ناحية أخرى، أدت الضربات الروسية إلى تغيير توزانات القوى على المستويات المختلفة، السورية والإقليمية والدولية. فنهضت الدولة السورية من جديد، واستعاد الجيش السورى السيطرة على ٦٠% من الأراضى السورية، وأضطر الجميع إلى العودة لطاولة المفاوضات بعد أن تأكد استحالة الحسم العسكرى للأزمة، وأن التسوية السلمية هى السبيل الوحيد لإنهاءها.

وشهدت التحالفات الإقليمية تطورات هامة حيث دفع التنسيق الذى تقتضيه الضربات الروسية إلى ظهور محور هام يضم روسيا وإيران وتركيا، إلى جانب سوريا والعراق وحزب الله فى لبنان. فقد اتجهت روسيا لتعميق تحالفاتها الرئيسية فى المنطقة من خلال مثلث "روسيا سوريا إيران"، الذى تعد دمشق نقطة الارتكاز الأساسية فيه والحليف الاستراتيجى الأساسى لموسكو وذلك فى ضوء خصوصية العلاقة بين البلدين. تزامن هذا مع تعميق التعاون الاستراتيجى الروسى الإيرانى. كما فرضت التطورات المختلفة على تركيا ضرورة التنسيق مع موسكو وإنهاء حالة التوتر والقطيعة التى خيمت على العلاقات بين البلدين فى أعقاب إسقاط أنقرة للطائرة الحربية الروسية، ساعد على ذلك موقف روسيا من المحاولة الانقلابية فى تركيا، لتنتقل الأخيرة من

المعسكر المناهض لروسيا فى المنطقة إلى نقطة ما أقرب إلى موسكو دون أن تخرج بالكامل من العباءة الأمريكية. فقد تخوفت أنقرة من أن يكون التقدم الذى حققته قوات "سوريا الديمقراطية" بقوامها الكردى، خطوة أولى نحو إعلان الفيدرالية فى المناطق الكردية السورية، وما ينطوى عليه ذلك من تهديد لسلامتها الإقليمية حيث يمثل الأكراد حوالى ٢٠% من سكانها يتركزون فى جنوب وجنوب شرق تركيا المتاخم للأراضى السورية، واتخذت من ذلك ذريعة لبدء عملية عسكرية فى الأراضى السورية، "عملية درع الفرات"، التى فرضت التنسيق مع روسيا لتجنب صدام أخر ستكون عواقبة وخيمة.

فى ضوء ما تقدم، أصبح من الواضح أن روسيا هى التى تقود مسار التطورات فى سوريا، وذلك من خلال استمرار العمليات العسكرية والتمشيط على الأرض للجيش السورى بمساعدة الضربات الجوية الروسية عند الحاجة من ناحية. ودفع المسارات المختلفة للتسوية من ناحية أخرى، والتى تتضمن إلى جانب المسار السياسى فى جنيف، كل من مسار أستانا (مع إيران وتركيا)، ومسار عمان (مع الأردن والولايات المتحدة) بشأن مناطق خفض التصعيد فى سوريا. وهى أربع مناطق أساسية، الأولى تمتد فى شمال سوريا، وتشمل ريف إدلب والمناطق المحاذية، وشمال شرقي ريف اللاذقية، وغربي ريف حلب وشمال ريف حماة. المنطقة الثانية فى الغوطة الشرقية. الثالثة تقع شمالي ريف حمص، وتشمل مدينتي الرستن وتلبيسة والمناطق المحاذية. أما المنطقة الرابعة فتمتد في جنوب سوريا في المناطق المحاذية للحدود الأردنية. وتعتبر روسيا هذه المناطق خطوة هامة لتمكين الجيش السورى وتضييق الخناق على الارهابيين لتصفيتهم تماما، وليس لتقسيم سوريا كما يعتقد البعض، كما تعتبرها ممهدة ومكملة لمسار جنيف السياسى.

وقد تم إطلاق مسار القاهرة كمسار ثالث بشأن مناطق خفض التصعيد، إلى جانب أستانة وعمان. ففى ٢٢ يوليو تم توقيع اتفاق خاص بآلية عمل منطقة خفض التصعيد فى الغوطة الشرقية بوساطة مصرية بين وزارة الدفاع الروسية والمعارضة السورية وجيش الاسلام. وفى الأسبوع التالى وتحديداً فى ٣١ يوليو نجحت الوساطة المصرية فى التوصل إلى اتفاق جديد بين ممثلى وزارة الدفاع الروسية، والمعارضة السورية حول نظام عمل منطقة خفض التصعيد في سوريا شمال مدينة حمص، على أن يبدأ وقف إطلاق النار فى المنطقة المذكورة يوم الخميس ٣ أغسطس، ويشمل ذلك ٨٤ بلدة سورية يقطنها أكثر من ١٤٧ ألف نسمة. ويعقب وقف إطلاق النار إدخال

المساعدات الإنسانية إلى ريف حمص الشمالي فى محاولة للتخفيف من معاناة السوريين الذين طحنتهم الحرب بين رحاها.

وقد ركزت مباحثات "أستانا ٦" التى عُقدت يومى ١٤ و١٥ سبتمبر ٢٠١٧، على الأمور التفصيلية والفنية الخاصة بمناطق خفض التصعيد بسوريا، من قبيل توزيع قوات المراقبة وعملها ومهامها فى هذه المناطق، وهى الجولة الأخيرة التى تناقش مناطق خفض التصعيد، وستركز الجولات القادمة على القضايا الأخرى المتعلقة باستعادة الاستقرار الكامل فى سوريا. وقد انتهت المباحثات إلى إصدار ٤ وثائق تفصيلية بشأن مناطق خفض التصعيد، وتم تأجيل الوثيقة الخاصة بالأسرى والمعتقلين حيث أبدى الوفد السورى تحفظات على بعض الأسماء المطلوبة من جانب المعارضة، معتبراً أياها خطرة وإرهابية. وصدر بيان مشترك حول آلية عمل مناطق خفض التصعيد في سوريا من جانب روسيا وتركيا وإيران باعتبارها الدول الضامنة لوقف إطلاق النار، أكد على استمرار العمل بمناطق خفض التصعيد لمدة سريانه ٦ أشهر في البداية، قابلة للتمديد تلقائيا بإجماع الدول الضامنة. ونشر قوات لمراقبة خفض التوتر وفقا للخرائط المتفق عليها في أنقرة في ٨ سبتمبر، وبموجب شروط نشر هذه القوات التي وضعتها لجنة العمل المشتركة، في المنطقة الآمنة بإدلب وأجزاء من المحافظات المجاورة لمنع وقوع اشتباكات بين الأطراف المتنازعة، وتشكيل لجنة إيرانية روسية تركية مشتركة لتنسيق عمل قوات المراقبة.

فى هذا الاطار، كان من الضرورى عقد مباحثات مباشرة بين روسيا والولايات المتحدة بشأن دير الزور والتنف، وكانت الولايات المتحدة ممثلة كمراقب بمساعد وزير الخارجية الأمريكى لشئون الشرق الأوسط، ولكنه لم يتدخل فى المفاوضات، ويتم التنسيق بين الجانبين فيما يتعلق بجنوب سوريا عبر مسار عمان. وخلال لقاء بوتين وترامب في هامبورج، تم مناقشة إنشاء منطقة أمنية في التنف ووفق مصادر في الخارجية الأمريكية، فإن الرئيسين اتفقا على بقاء منطقة التنف تحت سيطرة التحالف الدولي الذي تقوده واشنطن، مقابل تخلي الولايات المتحدة عن مسألة استقالة الأسد من منصبه، والتوقف عن دعم المعارضة المسلحة. وقد أعقب ذلك إعلان البيت الأبيض عن ايقاف الدعم العسكري للمعارضة السورية المعتدلة، الأمر الذى يعنى أن الصفقة الروسية الأمريكية صحيحة.

وتحمل هذه التطورات فى طياتها دلالات هامة تتعلق بمكانة روسيا الدولية ودورها الحاضر والمستقبلى فى منطقة الشرق الأوسط، حيث تؤشر لوجود روسى دائم وقوى، ودور فاعل ومؤثر لموسكو فى المنطقة، فالوجود الروسى فى سوريا ليس حدثاً عابراً أو استثنائياً فى السياسة الروسية ولكنه توجه استراتيجى له صفة الديمومة والثبات، خاصة مع تأكيد موسكو عدم وجود سقف زمنى لعملياتها فى سوريا، وإن إنهاء مهمتها مرتبط بنجاحها فى القضاء على الارهاب وتحقيق الأهداف المرجوة، التى تظل مسألة تقديرية للقيادة الروسية.

لقد أصبحت روسيا طرفاً لا يمكن تجاوزة فى أى ترتيبات خاصة بالمنطقة، وحمل تدخلها فى سوريا رسالة واضحة حول شكل النظام العالمى الجديد، وانتهاء مرحلة القطبية الواحدة والإنفراد الأمريكى فى إدارة الشأن الدولى والإقليمى، وأكد أن واشنطن مع استمراراها كفاعل "رئيسى" بالمنطقة فإنها لم تعد الفاعل "الأوحد" بها كما كان عليه الحال من قبل. فقد حجم الحضور الروسى القوى من المنظور الأوحد الضيق فى إدارة قضايا وملفات المنطقة وفق الأجندة والمصالح الأمريكية، وقدم بدائل واسعة الأفق تتسع لمختلف الأطراف دون استبعاد أو تهميش يكرس الخلافات الداخلية ويعزز الاستقطابات الإقليمية.

ولايعنى هذا عودة الحرب الباردة من جديد، فعودة روسيا إلى المنطقة تأتى فى إطار منظور تعاونى وليس تنافسى مع القوى الكبرى الأخرى الفاعلة بها وفى مقدمتها الولايات المتحدة. وموسكو حريصة على التفاهم والتعاون مع واشنطن والأوربيين رغم استمرار الخلاف والتوتر بين الجانبين على خلفية الأزمة الأوكرانية. إلا إن هذا الحرص من الجانب الروسى لا يقابله خطوات مماثلة من جانب الولايات المتحدة، التى تبدو أميل على اضعاف داعش دون القضاء التام عليها، وتقسيم العراق، والعبث فى سوريا.

التحديات التى تقوض التعاون بين البلدين:

إن المراوغة الأمريكية والتنصل من تنفيذ الاتفاقات التى تم التوصل إليها مع موسكو يظل تحدى رئيسى يواجه الأخيرة فى حربها وحرب المنطقة بأسرها ضد الارهاب، ويجعل القضاء على هذه التنظيمات أكثر تكلفة وأطول أمداً. ومن المعروف

أن الـرئيس الأمريكـى لا يملـك سـلطات مطلقـة، ونسـبة مسـاهمته وتـأثيره علـى عمليـة صـنع القـرار الأمريكـى ليسـت أيضـاً مطلقـة، وهنـاك مؤسسـات أخـرى تشـاركه البـت فـى قـرارات السياسـة الخارجيـة أهمهـا الكـونجرس والبنتـاجون. وقـد شـنت هـذه المؤسسـات هجوماً حاداً على ترامب الذى جاء، على غير المعتاد، من خارج كل هذه المؤسسات، وبتوجـه صـدامى مـع توجهاتهـا القائمـة والمسـتمرة لعقـود. ومارسـت هـذه المؤسسـات ضـغوط شـديدة علـى ترامـب، وشـكل الكـونجرس لجنـة خاصـة تقـوم بـالتحقيق فـي "التـأثير الروسـي" علـى الانتخابـات الأمريكيـة، و"التواطـؤ الروسـي مـع حملـة ترامـب." ومـن الواضـح أن هنـاك عـزم مـن جانـب المؤسسـات الأمريكيـة علـى عرقلـة أى تفكيـر فـى تخفيـف حـدة التـوتر فـى العلاقـة مـع روسـيا، وهـو مـا انعكـس علـى التعـاون بـين البلـدين فـى الملـف السـورى وغيـره مـن الملفـات. ومـن الواضـح أن ترامـب قـد خضـع لهـذه الضـغوطات فـى "صـفقة" تقضـى بتخفيـف الضـغط علـى ترامـب وإدارتـه، وتوقيـف الـتهم الموجهـة إليـه بسـبب "علاقتـه مـع موسـكو"، مقابـل إطـلاق يـد المؤسسـات الأمريكيـة فـى توجيه السياسة الخارجية عامة ومنها تلك الخاصة بسوريا.

فخلافـاً لمـا كـان يأملـه الكـرملين، ومـا تركـه لقـاء بـوتين ترامـب علـى هـامش قمـة العشـرين مـن تفـاؤل حـذر بشـأن فـرص التعـاون بـين البلـدين فـى الملفـات الإقليميـة والدوليـة، وإصـلاح مـا خلفتـه إدارة أوبامـا فـى العلاقـات الروسـية الأمريكيـة، دخلـت العلاقـة بـين البلـدين حلقـة مفرغـة مـن التصـعيد غيـر المسـبوق بـدأت بفـرض حزمـة جديـدة مـن العقوبـات الأمريكيـة علـى روسـيا فـى ٢ أغسـطس. ومازالـت المؤسسـات الأمريكيـة تنظـر لروسـيا باعتبارهـا تهديـد لواشـنطن. وفـى مـؤتمر صـحفي عقدتـه وزارة الـدفاع الأمريكيـة (البنتـاجون) يـوم ٦ سـبتمبر أكـد النائـب الأول لمسـاعد وزيـر الـدفاع الأمريكـي لشـؤون أوروبـا وحلـف النـاتو، تومـاس جوفـوس، أن واشـنطن تواجـه تغييـرات كبيـرة علـى الصـعيد العـالمي واعتبـر أن روسـيا والصـين لا تـزالان تشـكلان التحـدي الرئيسـى بالنسـبة للولايـات المتحـدة، لأنهمـا "اختـارت أن تكـون منافسـا اسـتراتيجيا" لواشـنطن علـى حـد تعبيـره. ووضـع البلـدين فـى سـلة واحـدة مـع إيـران وكوريـا الشـمالية بـل وتنظيمـا "الدولـة الإسـلامية" و"القاعـدة"!!. وفـي كلمـة نائـب الـرئيس الأمريكـي، مايكـل بينـس أشـار إلـى أن الخطـر أصـبح يعـم العـالم بعـد مـا انهـارت الأفكـار الشـيوعية، وأن "المعتـدون الـروس يريـدون زعزعة الاستقرار في أوروبا الشرقية ومضاعفة تأثيرهم في آسيا الوسطى".

ويبـدو أن ترامـب استسـلم لضـغط المؤسسـات التـى تحـدت أفكـاره وقراراتـه واتخـذتها ذريعـة لطـرح عزلـه بشـكل جـدى أرقـه، ومـن ثـم جـاءت قراراتـه التصـعيدية باتجـاه موسـكو

فـى محاولـة منـه لتخفيـف هـذا الضـغط مـن جانـب المؤسسـات عليـه. وخـلال قمـة حلـف شـمال الأطلسـى (النـاتو)، يـوم ٢٥ مـايو، اعتبـر ترامـب "الخطـر الروسـي"، إلـى جانـب الإرهـاب والهجـرة غيـر الشـرعية، التهديـدات الرئيسـية التـى يواجههـا الحلـف، تـزامن ذلـك مـع بيـان للخارجيـة الروسـية اعتبـر أن العلاقـات بـين روسـيا والنـاتو "تعـاني مـن أزمـة عميقة، وإنها في أسوأ حالاتها منذ الحرب الباردة".

ورغـم إن المؤشـرات تشـير باتجـاه اسـتمرار التـوتر فـى العلاقـة بـين البلـدين، يظـل هنـاك هـامش مـن التفاهمـات التـى تفرضـها مصـالح البلـدين ومقتضـيات أمنهمـا القـومى تنـزع الفتيـل فـى اللحظـة الأخيـرة. وتؤكـد موسـكو دومـاً علـى إن انتعـاش دورهـا وحراكهـا العسـكرى والاقتصـادى والدبلوماسـى يـأتى فـى إطـار رؤيـة برجماتيـة تهـدف إلـى تحقيـق مصـالحها مـن منظـور تشـاركى وتعـاونى يقـوم علـى الشـراكة المتبادلـة مـع دول المنطقـة، وعلـى التفـاهم والتعـاون واحتـرام مصـالح القـوى الكبـرى الأخـرى الفاعلـة بهـا، وإنهـا أقلعـت نهائيـاً وإلـى غيـر رجعـة عـن منطـق الحـرب البـاردة، وإنهـا لا تسـعى إلـى التنـافس مـع الولايـات المتحـدة ومزاحمـة واشـنطن أو غيرهـا فـى المنطقـة، لإيمانهـا بـأن أى مواجهـة مباشـرة أو غيـر مباشـرة سـتزيد مـن اسـتنزاف القـدرات الروسـية وترفـع مـن تكلفـة حركتهـا دون جـدوى. فموسـكو تسـعى لتحقيـق أكبـر قـدر مـن المكاسـب الاسـتراتيجية والاقتصـادية بأقـل تكلفـة ممكنـة، الأمـر الـذى يقتضـى التنسـيق مـع الأطـراف الدوليـة والإقليميـة المعنيـة بقضـايا المنطقـة والتـى لهـا أيضـاً مصـالحها التـى تعمـل جاهـدة علـى تحقيقهـا، وأبرزهـا الولايات المتحدة.

إن عـودة روسـيا كانـت قويـة ومـؤثرة وفـى إطـار حسـابات دقيقـة أذهلـت الكثيـر مـن الفـاعلين داخـل المنطقـة وخارجهـا وأجبـرتهم علـى التعامـل بـاحترام مـع موسـكو والتعـاون معهـا لأنـه لـم يعـد مـن الممكـن تجاوزهـا. وفـى ضـوء المعطيـات الراهنـة فـإن الـدور الروسـى مرشـح للتزايـد فـى المسـتقبل فـى مختلـف المجـالات. وسـيتيح الارتبـاك فـى السياسـة الأمريكيـة نتيجـة الشـد والجـذب بـين البيـت الأبـيض والمؤسسـات الأخـرى، وتصـاعد التناقضـات الداخليـة بـين شـرائح هامـة فـى المجتمـع الأمريكـى، فـرص أوسـع للحركـة الروسية التى تبدو واعية وحاسمة التوجه.